حبسناه هاج اصحابه علينا ، وان تركناه هيج الرأي العام علينا » .

وقد اصيب الطاهر بمرض في السجن فنقل الى احد المستشفيات واستطاع ان يهرب وتنكر واختفى احد عشر شهرا عملت الوزارة جهدها للاهتداء اليه فعجزت حتى ظهر فجاة في رئاسة مجلس الوزراء اثناء اجتماع النحاس بالصحفيين في مارس ١٩٤٢ . وقد سطر خلال الهرب ، كما يقول(١٩) « .. مذكرات وملحوظات وخواطر وملاحظات متناثرة وبعض الشجون والشؤون والتجارب والمطالعات والتعليقات من سياسية وتاريخية وادبية وبوليسية ونظرات في الاستعمار واحوال الامم المظلومة » أخرجها جميعا في كتاب ظلام السجن بعد ان اضاف لها ملاحظات وخواطر جديدة صادفته حتى طبع الكتاب نهائيا ١٩٥١ بصورة تجعل القارىء « يرافقه في تلك الفترة من الحياة كأنه يستعرض فصلا سينمائيا متعاقب الحوادث ، متلاحق الصور والمناظر .. » وهو لا يزعم انه يسطر كتابا في العلم او في الهندسة .

في كتابه يحمل بريطانيه مسؤولية ما حل بفلسطين ففلسطين ما كانت معادية لبريطانيه ، ولكن بريطانيه استولت عليها بالحديد والغدر وادعت انها وصية تريد ان تمدن البلاد والعرب لهم العذر في بعض بريطانيه وتمنيهم انكسارها اثناء الحرب ، ما ذلك الا لانهم جاءوا بالصهيونيين اليهود الى فلسطين لجعلها « دولة يهودية تحت رعايتها لتحمي لها قناة السويس من الشمال ويحرس لها الشعب اليهودي ارض فلسطين لتكون محطة لطياراتها .. » . وأقلقته اخبار تدفق اليهود وتعجب « اذ لا عمل لهؤلاء الانكليز حكومة وشعبا الا خدمة اليهود وحماية اليهود » ، والغريب ان الانكليز في خلال الحرب وفي الايام التي كانوا ينهزمون فيها أمام الالمان كانت بريطانية لا تستر في عطفها على اليهود ولا تكتم سوء نيتها نحو العرب واصرارها على اعطاء فلسطين لليهود واقامة الدولة اليهودية فيها(٢٠) لذلك كان يمني نفسه بأن انكسار انكلترا في الحرب سيحل مشكلة اليهود وسيهربون من فلسطين قبل خروج الانكليز منها ، بل حتى انه « لا يمكن للعالم ان يعيش بسلام الا اذا ارغمت دولة بريطانيا على الانكماش في جزيرتها ورفع سيطرتها عن الدنيا التي تتسلط عليها فيزول الاستعمار من الدنيا بأسرها لانها هي أم الاستعمار وهي التي علمت فرنسا وايطاليا فن الاستعمار ، بعد ان تعلمته من هولندا وورثت مستعمرات المانيا »(٢١).

الموقف ذاته وقفه من دول الاستعمار كلها : ففرنسا التي تحتل العالم العربي المغربي في تونس والجزائر ومراكش ، وأهم مناطق العالم العربي الشرقي كسوريه ولبنان ، وبمناسبة سقوط باريس عدد ما ارتكبته فرنسا من فظائع في هذه البلاد « .. المستعمرون دائما هم هم ، تبطرهم النعمة وتصلحهم النقمة ولا ينفع معهم الا سحقهم ومحقهم الى أبد الابدين »(٢٢).

أما أمريكا « .. ثالثة الاثافي دولة الدولارات والماكينات واسهم الشركات اليهودية.. التي تطفلت على السياسة الدولية اخيرا بفضل (الدولار والمدفع) ، والتي ظهر من سياستها وتصرفاتها وافاعيلها انها لا تعرف دينا الا القوة ، وانها لا تنصر الا الظلم والعدوان لاننا لم نرها في جانب الحق مرة واحدة .. ولا لحظة مطلقا ، منذ عرفناها في الحرب العظمى حتى هذه الساعة، ويكفي احتضانها لليهود ، او احتضان اليهود لها وسيطرتهم عليها ، وعلى رئيسها ، وعلى حكامها وتوابها وعلى عقول شعبها وضمائر أهلها »(٢٣).

وكان الطاهر يتعاطف مع كل الشعوب المضطهدة اذ « تكفي نظرة واحدة الى خارطة الشرق الاقصى حتى تأخذه الدهشة من ظاهرة مهينة للشرق كله ، .. حيث تتحكم بريطانيا وامريكا وفرنسا وروسيا وهولندا والبرتغال .. فهذه الدول الطفيلية الكبيرة منها والحقيرة تأتي من كل انحاء العالم لتستعبد ذلك الشرق فتسلب وتسرق وتقتل وتذبح .. »(٢٤).

لم يكن غريبا اذن ان ينحاز الطاهر بعواطفه الى المعسكر الثاني اذ أن « كل شيء يهون في نظرنا الابقاء الانكليز » ، ولذلك حين بلغه وهو في السجن انه متهم بالاتصال بالطليان لتشويه سمعته قال « .. ولكن ماذا علي لو اتصلت بالطليان والالمان ليساعدونا على الخلاص من الانكليز ؟ الم يقل المستر تشرشل انه مستعد لان يستعين بالشيطان ليخلص انكلترا من الالمان ؟ » ، وبينما كانت الدنيا غارقة في مصائب الحرب « وكان انتصار الالمان على الانكليز برا وبحرا وجوا يشرح صدورنا